مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية

اسم المقال: الرأس بين المعتقد والفن في العصر الحجري الحديث في بلاد الشام
اسم الكاتب: د. مي الحايك
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2712
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 08:31 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

الرأس بين المعتقد والفن في العصر الحجري الحديث في بلاد الشام

د. مي الحايك*

المخلص

يُعنى هذا البحث بمحاولة تسليط الضوء على أهمية الرأس عند سكان العصر الحجري الحديث في بلاد الشام وذلك من خلال دراسة الطقوس الجنائزية المتعلقة بالرأس بخاصة، وكيفية التعامل معه وفصله عن الجسد وحفظه في أماكن خاصة ، مع محاولة إعادة تشكيل الوجه باستخدام مواد دائمة كالجص، بالإضافة لمحاولة تشكيل الرأس عبر نحت الوجه وتصنيع أقنعة حجرية أدتْ دوراً مهماً في الطقوس المتعلقة بالموت وعبادة الأسلاف.

*كلية الآداب والعلوم الإنسانية– قسم الآثار.

The head between Belief and Art in the Neolithic in the Levant

Dr. May Hayek*

Summary

This research is concerned with an attempt to shed light on the importance of the head among the Neolithic inhabitants of the Levant by studying funerary rituals related to the head in particular and how to deal with it, separating it from the body and preserving it in private places, while trying to reshape the face using permanent materials such as plaster, in addition to trying Head shaping by carving the face and making stone masks played an important role in rituals related to death and ancestor worship.

* Faculty of Arts and Humanities - Department of Archeology.

المقدمة:

اهتم الإنسان بمختلف أجزاء جسده وحاول الحفاظ عليها وقد أعطى أهمية خاصة للرأس. حيث يعدُّ كلٌّ من الرأس والوجه المحددان الرئيسان للأشخاص، فيمكن تمييز الأفراد من اختلاف ملامح الوجه وشكل الرأس بالدرجة الأولى، كما أن الرأس يعدُّ مقراً للروح، والرأس يمتلك قوة الحياة فهو رمزٌ عميقٌ للقوة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الحياة، والموت، والخصوبة. وهذا المفهوم للرأس ظهر بشكل واضح في الطقوس الجنائزية منذ العصر الحجري القديم الأوسط لدى إنسان النياندرتال الذي كان أول من مارس طقوس جنائزية واضحة ومنها الاهتمام بالرأس، ففي فرنسا عُثِر على مدفن يعود لإنسان النياندرتال تضمن هيكلاً عظمياً لطفل ثني جسده وفُصِلَ رأسه ودفن في قبر مستقل، ومن فلسطين عُثِر في مغارة الكبارا(Kebara Cave) على بقايا هيكل لإنسان نياندرتال منزوع الجمجمة ومن المرجح أن الجمجمة نزعت بشكل متعمد[1] (الشكل 1)، بعد موت الرجل بشهور، وتشهد هذه الممارسات الجنائزية على الأهمية التي حظي بها الرأس عند إنسان النيندرتال والتي كانت باكورة عبادة الإنسان للرأس.

شكل رقم 1: يبين هيكل نياندرتال بدون الجمجمة المكتشفة في مغارة كبارا عن: Tillier 2003.

[1]Tillier,M, 2003, New Human Remains from Kebara Cave the Place of the kebara hominids in the Levantine Mousterian Fossil Record, Paleorient, Vol 29/2, P.P35-37.

أما بالنسبة لظهور الرأس في الفن فقد كانت البداية مع إنسان النيدرتال الذي الذي عاش في كهف (لاروشكوتاردLa Roche cotard cave) في فرنسا فقد عُثِر على حجر صوان مسطح نُحِت عليه ما يشبه الرأس (الشكل 2) مع محاولة لنحت الأنف، ومحجر العين، حيث ظهرت العين ناتئة بشكل واضح[2].

شكل رقم (2) يظهر محاولةً لتشكيل ملامح للوجه
من كهف لاروش كوتارد (La Roche cotard cave)
عن: Le muse department de prhistoire du grand pressigny

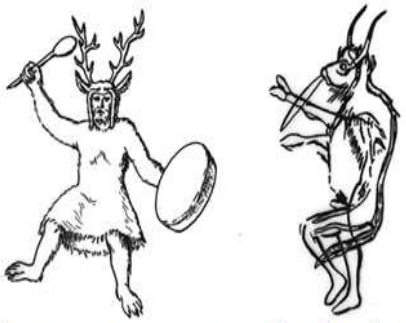

شكل رقم 2-أ تمثيل قناع حيواني على وجه بشري من تل (تَرافِير)
شكل رقم 2-ب رسم تخيلي لشكل الشامان.

وجاءت محاولة الإنسان العاقل في كهف (تروا فريرTroisFreres) في فرنسا المؤرخ ب 14000 الف سنة قبل الميلاد برسم قناع يشابه ما يرتديه الشامان أثناء الطقوس الخاصة في الصيد(الشكل 2 أ- ب).

[2]Marquet nadlorblanchet, 2015, A Neanderthal face? The proto-figurive La Roche-Cotard, Langeais(Indreet-Loire, France).

وهذا الاهتمام بالرأس والطقوس المتعلقة به انتشرت ربما في جميع مواقع العالم ومنها بلاد الشام المواقع العائدة للثقافة النطوفية:

أولاً الثقافة النطوفية:

تعدُّ الثقافة النطوفية مرحلة أساسية لفهم عملية الاستقرار والابتكارات الاقتصادية والاجتماعيةالتي أدت إلى ظهور العصر الحجري الحديث. خلال المرحلة النطوفية، أصبحت مجموعات الأكواخ الصغيرة التي كانت تشكل مساكن الفترة الانتقالية بين العصر الحجري الوسيط والحديث، تجمعات سكنية تضم عدداً أكبر من السكان. وأصبحت بنية الأكواخ أيضا أكثر تعقيداً من ناحية المخطط ومواد البناء، فقد استخدمت الحجارة لتشكيل جدران صغيرة وأرضيات، وذلك لبناء مساكن دائمة، هذا الاستقرار ترافق بطقوس جنائزية كالدفن ضمن المنازل والاهتمام بأجزاء خاصة من الجسد البشري ومنها:

1– الرأس في الطقوس الجنائزية:

رافق هذا التحول تطور في مفهوم الطقوس الشعائرية فتمثل الثقافة النطوفية مرحلة مهمة لبداية الاهتمام بالرأس من حيث المعتقد والطقس الديني لأنها تقدم الدليل الأول على هذه الممارسات في بلاد الشام، ولأن الثقافة النطوفية تمثل المرحلة الانتقالية بين مجتمعات الصيد والالتقاط و حياة الاستقرار والزراعة. فقد عُثِر على أقدم دليل على فصل الجمجمة عن الجسم أو إزالة الجمجمة بعد عملية الدفن من موقع عرق الأحمر المؤرخ بالفترة النطوفية المبكرة، إذ اكتشف داخل هذا الملجأ الصخري جماجم مفصولة عن الجسد.وفي الفترة المتأخرة من الثقافة النطوفية تبدأ دلائل الاهتمام بالرأس وممارسة إزالة الجمجمة بشكلٍ واضح، وأصبحت هذه

الممارسات أكثر شيوعاً ففي كهف الحمام في فلسطين عُثِر على مدفن ضمَّ الجمجمة مع العظام الطويلة فقط.

وفي كهف (رقفتا) في فلسطين الذي ضم بقايا عظمية ل 29 فرداً، تم دفن اثنين منها على الظهر وبوضعية القرفصاء[3] هيكل رقم (25 يعود لشخص بالغ) وضع أعلى الرأس بلاطة حجرية بما يشبه الوسادة، بينما الهيكل الثاني هيكل رقم (28 يعود لمراهق)، وقد تمت إزالة جمجمة هيكل رقم 28 بعد فترة طويلة من عملية الدفن بشكلٍ طقسي حيث ضمَّ المدفن بقايا نباتية لأزهار معينة (الشكل 3).

الشكل (3): يبين الهيكلان من موقع رقفتا كما هما لحظة الاكتشاف، مع صورة توضيحية لوضعية الدفن عن : Lengyel,2013

[3]Lengyel, 2013,The Natufian at Raqefet Cave,Natufian foragers in the Levant : terminal Pleistocene social changes in Western Asia / edited by Ofer Bar-Yosef& François Valla,P: 498.

وفي موقع وادي فلاح المؤرخ بالفترة النطوفية المتأخرة، عُثر على بقايا 50 قبراً تقريباً بنيت من قوالب غير كاملة من الحجر الجيري، وقد ضمت بعض هذه الدفنات بقايا لهياكل عظمية تفتقر إلى الجمجمة[4]. ومن موقع عين الملاحة عثر على أرضية المسكن في مكان مواجه للموقد على جمجمة منفصلة عن الجسد اتصل بها الفك السفلي، واثنين من الفقرات العنقية، وحملت الفقرة الثانية علامات قطع يدوي[5]، مما يدل على أنها فصلت عن عمْدٍ وربما استخدمت هذه الجمجمة في طقوس شعائرية معينة، أو أنها تعود لشخص ذو مكانة اجتماعية خاصة بالنسبة لعشيرته أو أسرته.

ومن مغارة الواد في جبل الكرمل عثر على حوالي أحد عشر دفنة، بينها دفنات تفتقر للجمجمة كالمدفن رقم (H115) ضمَّ هيكلاً عظمياً مكتملاً تقريباً مع غياب الجمجمة والفك السفلي والهيكل عائد لأنثى بالغة[6]، كما ضم المدفن (H122) عدداً من الهياكل العظمية العائدة لأربعة أفراد بالغين بالإضافة لهيكل عظمي مكتمل تقريباً ما عدا الجمجمة لطفلة عمرها تقريباً 9 سنوات.أيضاً تم العثور على دفنات في المواقع النطوفية وضع بالقرب من الرأس قطعة حجرية أو هاون ربما إشارة إلى تحديد جمجمة الفرد الذي سوف تتم إزالتها لاحقاً.

[4]Ferenbach,D, 1966, Note preliminaire sur les Squelettes Humains de Fallah et de Mallaha actes du vie congress, International des Sciences Anthropoplogiques et Ethnotogiques, p.587.
[5]Bocquentin,F 2007, A final Natufian Population: Health and Burials statuse at Aynan-Mallaha in Faerman,M., Horwitz, (eds)Faces from the past: Diachronic patterns in the Biology of Human Poulations form the Eastern Mediterranean. Papers in honour of patricia smith. BAR International series 1603. PP. 66-81
[6]Boyd,B 2001, the Natufian Burials from El-Wad Mount Carmel, Beyond Issues of Social Differntion JIPS,Vol,31,P 185.

شكل رقم 4 يبين نحت للرأس من موقع عين الملاحة
عن: Grosman, L., D. Shaham, F 2017

2-منحوتات تعبر عن الرأس في الثقافة النطوفية:

خلال الثقافة النطوفية ظهرت المحاولات الأولى لنحت الرأس بشكل منفصل ففي موقع عين الملاحة عُثِر على قطعةٍ تمثل الرأس مصنعة من الحجر الكلسي(الشكل 4) يبلغ ارتفاعها 6.8 سم والعرض 4سم، تظهر القطعة محاولة لتشكيل الرأس الذي حاول الفنان النطوفي نحته بشكل متطاول قليلاً مع تشكيل ملامح الوجه فالفم مفقود ولكن البقايا تدل على محاولة تشكيله[7]، أما الأنف فقد نحت بشكل بارزقليلاً، وجاءت العيون عبارة عن خط غائر قليلاً يعلوها خطٌ ثانٍ يعبر عن الحاجبان، ويمكن القول إن الرأس يعود لشخص كبير في السن وذلك من خلال الخطوط الجانبية المحيطة بالأنف والتي تم نحتها بشكل غائر معبرة عن الأخاديد التي تظهر في الوجه مع التقدم في العمر.

[7]Grosman, L., D. Shaham, F. 2017: A human face carved on a pebble from theLate Natufian site of NahalEinGev II, Antiquity91, 358.e2, 1–5

عُثر في موقع (عين جيف II) فلسطين المحتلة على منحوتة عبارة عن حصاة من الحجر الجيري أبعاده (60×90مم) حيث استخدم الفنان الشكل الطبيعي للحصى لتمثيل الخطوط العريضة للرأس البشرية (الشكل 5)، وعدل قليلاً بمحيط الحجر فشكل قوسين منخفضين يلتقيان في وسط الحصى يشكلان العينين ثم يتجهان لأسفل لرسم أنف مستقيم ممدود. والخط العميق للأنف مع الانحناء حقق الفنان تشكيل الوجنتان.

الشكل (5): يبين نحت للرأس من موقع (عين جيفII)عن Grosman, L., D. Shaham, F2017.

وهذا يؤكد حقيقة كون الجماجم تحظى بالاهتمام الأكبر، وهذا يدل على المكانة الخاصة للرأس في معتقدات المجتمعات النطوفية المتعلقة بما بعد الموت .

وكونها دفنت منفصلة وداخل بيوت السكن كل هذا يشيرعلى أن الرؤوس، الجماجم قد عُبدت وقُدِّست لأنها كانت رمزاً روحياً وتجسيداً لأمواتهم في بيوتٍ سكنها أحياؤهم، فهذا يوحي إلى رفضهم اعتبار الموت نهاية كل شيء، بل آمنوا بحياة أخرى لاحقة. ودليل على

نشوء بواكير عقيدة تجسدت في عبادة الأسلاف، وهي عبادة أخذت في العصر الحجري الحديث شكلاً أكثر وضوحاً وتعبيراً.

ثانياً العصر الحجري الحديث:

يعد العصر الحجري الحديث في بلاد الشام عصر التغيرات الكبرى سواءٌ الاقتصادية بمعرفة الزراعة والتدجين والفخار، وأيضاً عصر التغير الجذري في نظام المعتقدات والعالم الرمزي الذي ترافق مع الثورة الزراعية. فقد أدت الثورة الزراعية لظهور أنماط وسلوكيات جديدة في مجتمعات وقرى العصر الحجري الحديث، نظراً لأن التكنولوجيا الزراعية لإنتاج الغذاء تعتمد على الوحدة الاجتماعية وتنظيمها الاجتماعي الذي يُمكِّن المجتمع من الاستفادة من قدرات الأرض، وهذا أدى إلى إيجاد رموز مشتركة تربط أفراد القرية مع بعضهم بعضاً: منها عبادة الربة الأم، وأيضاً تقديس الأسلاف من خلال الاهتمام بالرأس الذي يرمز ربما إلى أرواح الأعضاء المهمين في القرية وقد ظهر هذا الاهتمام خلال:

1- العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ"

خلال العصر الحجري ما قبل الفخار"أ" ظهر الاهتمام بالرأس عن طريق:

أ- الرأس في الطقوس الجنائزية:

ترافق التطورفي مجال الحياة الاقتصادية الذي ظهر بشكل واضح خلال العصر الحجري ما قبل الفخار"أ" مع الاهتمام بالجماجم وفصلها عن الهيكل العظمي دون الفك السفلي الذي يبقى في الدفنة الأساسية، ومن المواقع التي اكتشفت فيها هذه الطقوس المتعلقة بالرأس موقع أريحا في فلسطين فقد عثر في المربع (DI) على تسع جماجم، مرتبة في ثلاثة صفوف حيث تم وضع ثلاث جماجم في كل صف، وجميعها تتجه إلى الاتجاه نفسه نحو

المركز، امتازت هذه الجماجم بعدم وجود الفك السفلي، بالإضافة لغياب أي نوع من المعالجة لهذه الجماجم سواءٌ بالجص أو أي مادة أخرى، كما عُثر في أريحا المؤرخة بفترة ما قبل الفخار"أ" على خمس جماجم عائدة لأطفال، وقد تم وضعها أسفل دعائم أحد جدارن البرج الدائري(الشكل 6)، بعضها لا يزال يتصل بفقرات عنقية، إلا أنه ليس هناك أي إشارة أو دلالة حول إذا كانت الفقرات العنقية تحمل أي علامات قطع، فربما مَثّلت تلك الجماجم نوعاً من قرابين التأسيس[8].

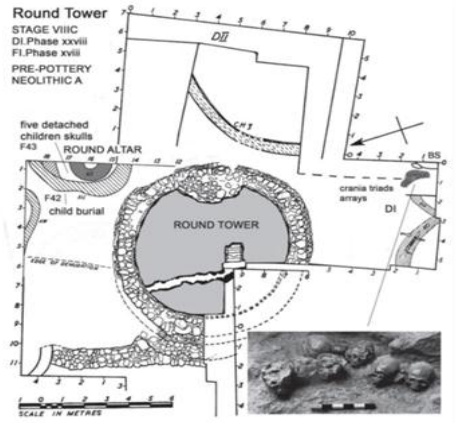

شكل6: يبين خمسة جماجم عائدة لأطفال تم وضعها بالقرب من البرج الدائري أريحا
عن: Kenyon 1981, pls. 36b, 213.

[8]Kenyon,K,M, 1975, Observations on the Article five Plastered Skulls from pre-pottery Neolithic A, Jericho, Plaleorient, Vol2/1, P211.

قدمت مواقع شمال سوريا العائدة لعصر ما قبل الفخار "أ" أمثلة على الاهتمام بالرأس، ومن هذه الموقع تل القرامل الذي كُشِفَ فيه عن 28 قبراً تحوي 36 هيكلاً عظمياً بشرياً، وقد تنوعت أساليب الدفن فيها ما بين القبور الفردية والجماعية، وكان هناك دفن لكامل الجسد أو من دون الجمجمة أو قبر للجمجمة فقط وقد بلغ عددها (11 جمجمة منفصلة)، وهذا يدل على أنه في تل القرامل يوجد لبعض الأشخاص قبران، قبر للجسم وآخر للرأس. وقد يكون ذلك لما يتمتع به الرأس من أهمية رمزية لدى سكان القرامل، وهذا ناتج عن اعتقادات دينية واجتماعية متعلقة بطقوس ما قبل الدفن وما بعده، ومن ثمَّ فإن ذلك يتطلب غالباً أن تكون عملية الدفن على مرحلتين، ففي المرحلة الأولى يكون الدفن أولياً، فيدفن كامل جسم المتوفى في حفرة تحت الأرض، بينما يتحول إلى دفن ثانوي في المرحلة الثانية ويتم ذلك عندما يفتح القبر ويتم دفن الجمجمة في مكان آخر وربما هو الأهم.

ب- منحوتات تعبر عن الرأس:

بالإضافة لفصل الرأس البشري ودفنه بشكل مستقل خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"أ" ، ظهرت محاولات نحته كما في موقع الجرف الأحمر، فقد عثر ضمن أحد المباني الدائرية المخصصة لممارسة الطقوس الدينية (الشكل 7) على قناعين حجريين منحوتين من الحجر الجيري[9]، القناع الأول يبلغ ارتفاعه 4.3 سم الرأس مستدير الشكل والعينان عبارة عن دائرة مقعرة ، والأنف بارز، أما الفم نحت بشكل عريض مما يوحي بوجه ضاحك، والجهة الخلفية من التمثال مقعرة[10] (الشكل 8).

[9]STORDEUR D. 2000, New discoveries in architecture and symbolism at Jerf el Ahmar (1997-1999 Syria) (traduction E. Willcox), Neo lithics 1/00, p. 1-4.

[10]Stordeur, D., and F. Abbès. 2002. “Du PPNA au PPNB: mise en lumière d’une phase detransition à Jerf el Ahmar (Syrie).” Bulletin de la Société Préhistorique Française 99 (3): 563-595.

شكل7: رقم يبين البيت الطقسي من جرف الأحمر

شكل رقم8: يبين القناع الحجري من الجرف الأحمر عن:Dietrich, Oliver

أما القناع الثاني الذي يبلغ ارتفاعه 4 سم فقد نحت بعناية أكثر، فتم الفصل بين الجبهة والوجه بحافة أو خط رفيع، وحاول الفنان تشكيل الشعر وذلك من خلال نحته خطوط متوازية أعلى الرأس تتجه نحو الأسفل[11]على الجانبين ومن الخلف يوجد ما يشبه ربطة الشعر، أما العيون فتم تمثيلها بدائرتين صغيرتين، والأنف بارز بشكلٍ واضح، أما الفم فقد اهتم الفنان بإظهار الأسنان[12] (الشكل 9).

[11]Dietrich, Oliver,2014,Masks and masquerade in the Early Neolithic: A view from Upper Mesopotamia

[12]Stordeur, D. 2015. Le village de Jerf el Ahmar (Syrie, 9500-8700 av. J.C.). L'architecture,miroir d'une société néolithique complexe. Paris: CNRS Editions

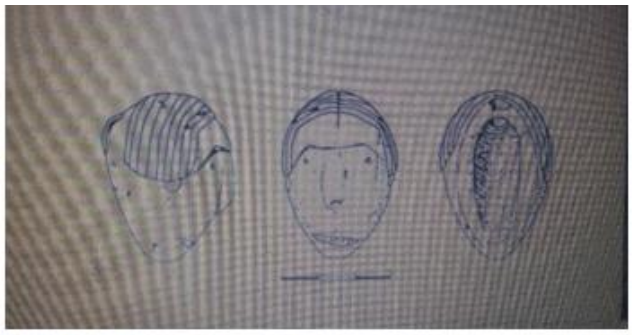

شكل رقم (9) يبين القناع الحجري الثاني المكتشف في موقع جرف الأحمر
عن: Stordeur, D., and F. Abbès. 2002

يمكن القول من خلال أشكال التمثالين المكتشفين في الجرف الأحمر إن هناك محاولة واضحة من قِبَلِ الفنان لإظهار الملامح الجنسية، فالتمثال الأول لرجل أما التمثال الثاني والذي اهتم الفنان بإظهار الشعر فيه يمثل أنثى، وكلا القناعين يوجد تجويف من الخلف ربما استخدم لوضعه أو ربطه على تماثيل ضمن طقوس شعائرية كانت تتم ممارستها ضمن هذا المنزل.

فإذا خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"أ" دفن الرأس كودائع تأسيسية في أريحا، وكذلك استخدام الأقنعة الممثلة للوجه البشري في موقع الجرف الأحمر والتي تعدُّ البدايات لتطور الاهتمام بالرأس خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"ب" .

2–العصر الحجري ما قبل الفخار"ب":

بالانتقال للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب " في بلاد الشام ظهر تطور اهتمام واضح بالرأس من خلال:

أ– الرأس في الطقوس الجنائزية :

لم يعدْ الاهتمام بدفن الجماجم بشكل منفصل داخل المنازل أو خارجها، بل أصبح الاهتمام بإعادة رسم ملامح الوجه والرأس باستخدام مواد دائمة كالجص، كما في مواقع:

ففي أريحا(تل السلطان) اكتشفت كاثلين كينيون في عام 1953م [13]، ما مجموعه عشر جماجم من ثلاثة مخابئ.

- **المخبأ الأول:** عُثِر فيه على سبع جماجم ضمن المربع(DI)، حيث عثر عليها ضمن كومة من الحطام، وجميع هذه الجماجم أعيد تشكيل الوجه البشري فيها.
- **المخبأ الثاني:** تضمن جمجمتين تم العثور عليهما أسفل أنقاض المنزل، وفي المنزل نفسه عثر على بقايا(30) هيكلاً عظمياً منزوعة الجماجم، وربما تنتمي الجمجمتان لأحد الهياكل، ولعل هذا المنزل كان يشكل المدفن الرئيس للقرية.
- **المخبأ الثالث:** عثر عليه في الطرف الغربي من التل، وتضمن جمجمة أخرى مكسوة بالجص.

اقتصرت إعادة تشكيل الجماجم في أريحا على تطبيق قناع من الجص على الوجه بشكلٍ عام، وعلى منطقتي الصدغ والقاعدة، وقد تم التعامل مع الأجزاء المتآكلة من الجمجمة على

[13]Kathleen M. Kenyon, "Excavations at Jericho," The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland 84, no. ½ (Jan-Dec. 1954): 103.

مرحلتين، المرحلة الأولى تمَ ملء جميع الفجوات والندوب (محاجر العين، فراغات الأنف، تجويف الفم) بالجص الخشن الممزوج بالمغرة الحمراء. أما المرحلة الثانية فكانت بعد اكتمال المرحلة الأولى، تم وضع طبقة من الجص الناعم البني (وأحياناً بني محمر) على الوجه فقط، باستثناء إحدى الجماجم التي وضعت عليها مجموعة من الخطوط السوداء في محاولة لتشكيل الشعر[14] (الشكل 10 – أ). أما أسفل الجمجمة فقد ملئ بالجص مشكلاً قاعدة أخذت الشكل المقعر، مما يدعو إلى الافتراض أن الجماجم كانت توضع للعرض على منصة أو رفٍّ، والقاعدة المقعرة ستضمن وضعاً أفضل للجمجمة (الشكل 10– ب).

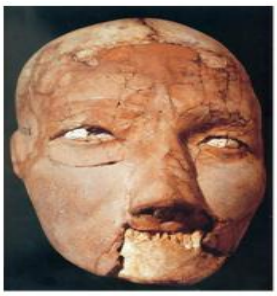

شكل رقم 10–ج: يبين الفك السفلي في أحد جماجم أريحا المجصصة
عن: Bonogofsky M, 2003

ومن ثمَّ كانت الغاية من الجص هي تشكيل الأجزاء المتآكلة، ويلحظ في هذه الجماجم أن الفك السفلي لم يكن متصلاً مع الجمجمة بالإضافة للاحتفاظ بالجزء العلوي من الأسنان، إلا

[14]Strouhal, "Five Plastered Skulls," 231; Fletcher, Pearson, and Ambers, "The Manipulation of Social and Physical Identity," 310.

أنه أعيد تشكيل الفك السفلي بالجص، باستثناء إحدى الجماجم فقد احتفظت بالفك السفلي (الشكل 10–ج)، أما بالنسبة للأنف فقد وضع بشكل جيد، ويعود ذلك إلى التحديد التشريحي السهل لبروز الأنف، كما جاء التعبير عن الفم مرتين على شكل شق مستعرض قصير، وجاء تشكيل صيوان الأذن على شكل نتوء صغير وبسيط، وفي حالات أخرى شكلت الأذن كنتوء بيضاوي أكبر وغير عادي[15].

الشكل (10– أ– ب): يبين الخطوط التي تم تشكيلها جماجم أريحا، والتقعر الذي تم تشكيله أسفل الجمجمة عن:Strouhal

[15]Bogonofsky,M. 2006 « Cultural and Ritual Evidence in the Archaeological Record: Modeled Skulls from the Ancient Near East », dans M. Georgiadis& C. Gallouéd., The Archaeology of Cult and Death, Archaeolingua, Budapest, p. 45-69.

كما تم تشكيل العين لجماجم أريحا عن طريق وضع طبقتين من الأصداف، مع وجود شق نصفي بين الصدفتين، وهذا الشق يوحي بعين تشبه عين حيوان مثل القط، أكثر مما تشبه عيناً بشرية[16]، وربما لم يكن القصد منها تشكيل عين حقيقية، بل مجرد إشارة رمزية للعين (الشكل 11).

شكل 11: يبين إعادة تشكيل العين بالصدف أريحا

عن: Bienert H–D. 1991

أيضاً عثر في موقع بيسان(Beisamoun) الذي يقع في الضفة الغربية في فلسطين والمؤرَّخ بالعصر الحجري ما قبل الفخار"ب" على جمجمتين متجاورتين بالقرب من مدخل منزل، ولم تكن هذه الجماجم مدفونة تحت الأرض بل كانت ملقاة على السطح. وعلى الرغم من أن الجمجمة الأولى بحالة سيئة[17]، إلا أن الجمجمة الثانية محفوظة بشكل جيد، ودلت الدراسة الأنثروبولوجيا أن الجمجمة لأنثى بالغة. وقد تم تغطية الجمجمة بالجص الأبيض، والذي امتد من فوق الحاجبين حتى أسفل الذقن، حيث أعيد تشكيل الأجزاء المتآكلة من

[16]Bienert H-D.1991 Skull cult in the prehistoric Near East. Journal of Prehistoric Religion 5: 9-21

[17]Bonogofsky M,2003 Neolithic plastered skulls and railroading epistemologies. Bulletin of the American School of
Oriental Research 331: 1-10.

الوجه، فقد مُثل بؤبؤ العين بقطع صغيرة من الجص، كما تم نزع الأسنان قبل الدفن، مع الاحتفاظ بالفك السفلي والفم مفتوح قليلاً، والأسنان فيه عبارة عن صفوف قصيرة ومتوازية ومتقاطعة من الجص(الشكل 12)، وأعيد تشكيل الأنف، فظهر بشكل دقيق، وقصير، ووضع مكان الفتحات الأنفية ثقبان دائريا الشكل[18].

شكل رقم 12: يبين الجمجمة المجصصة من موقع بيسان في فلسطين
عن: Bonogofsky M, 2003

[18] Goren, Yuval, Goring-Morris, Nigel A., and Segal, Irena. 2001"The Technology of SkullModelling in the Pre-Pottery Neolithic B (PPNB): Regional Variability, theRelation of Technology and Iconography and their Archaeological Implications." Journal of Archaeological Science 28: 671–690. doi:10.1006/jasc.1999.0573.

استمر الاهتمام بالرأس وإعادة تشكيله بالجص في موقع عين غزال في الأردن، فقد كشف عن أربعة عشر جمجمة متفرقة في أنحاء الموقع[19]، بعضها غير معالج وبعضها الآخر قد أعيد تشكيل الأجزاء التالفة منها، حيث استخدم سكان القرية نوعين من المعالجة للجماجم، إما عن طريق الطلاء فقد عثر على ثلاث جماجم تم طلاؤها بالصبغة الحمراء، مع وجود بقع سوداء على أرضية المنزل التي وجدت فيه[20] ،جميع هذه الجماجم منزوعة الفك السفلي، كما أن عملية التلوين استخدمت مع كافة الأعمار ودون تمييز الجنس. وتم استخدام الجص في التعامل مع ست جماجم عثر عليها في ثلاثة مخابئ من مختلف أنحاء الموقع، حيث ضم المخبأ الأول أربع جماجم لذكور بالغين، وضعت بشكلٍ متوازٍ، حيث وضعت الأولى في الأمام، واثنان في الصف الأوسط، والرابعة في الخلف[21] (شكل رقم13)، وجهت الجماجم باتجاه الجنوب الغربي، وجميعها قد أعيد تشكيلها، فقد خلت معظم الجماجم من الأسنان، باستثناء الجمجمة الرابعة، فالأسنان العلوية مثبتة بالأنف، وقد غطي الوجه بطبقة من الجص الملون بالأحمر، بينما الجزء العلوي والخلفي من الرأس غير معالج، وشكلت العيون من الجص الأبيض، ولم يتم تشكيل الذقن والفم والخدود.

[19]Rollefson,G,O, 1986 The Neolithic Village of 'Ain Ghazal, Jordan: Preliminary Report of the 1984 Season, BASOR
Supplement 24: 145-164.
[20]Gary O. Rollefson and Alan H. Simmons,1987, "Life and Death of 'Ain Ghazal," Archaeology: 38.
[21]Simmons,A, 1990, Plastered Human skull from Neolithic Ain Ghazal, JFA, Vol 17/1, P.107.

شكل 13: يبين جماجم عين غزال كما عثر عليها في الموقع عن:

كما جاءت ثاني أكبر مجموعة من الجماجم المجصصة من موقع تل الرماد، حيث تم الكشف عن ثلاثة وعشرين من الجماجم المجصصة وضعت في ثلاث مجموعات، حيث ضمت المجموعة الأولى خمس جماجم لإناث، واثنتين لذكور، وفتى بلغ عمره ثلاثة عشر عاماً[22]. احتفظت هذه الجماجم بالفك السفلي، ووضعت عليها طبقة من الجص، مع طلاء الوجه باللون الأبيض، وقد حملت الجبهة وأعلى الرأس بقعاً حمراء، وصنع بؤبؤ العين من الجص الرمادي وحدقة العين باللون الأبيض[23]. وقد تضمنت المجموعة الثانية جماجم لاثنين

[22]Contenson H. 2000 Ramad, Site Néolithique en Damascène (Syrie) aux VIIIe et VIIe Millénaires avant L'ère
Chrétienne. Beyrouth: Institut Français d' Archéologie du proche Orient
[23]Contenson, 1970, Septieme Campagne de Fouilles a Tell Rama den 1970, rapport preliminiaire AAAS, vol 20,P77.

من الإناث وذكر واحد، تم وضعها مقابلة لأساس حجري ومختلطة ببعض الدمى البشرية، وتم تجصيص هذه الجماجم بطلائها باللون الأحمر (الشكل 14).

شكل رقم 14 : جمجمة مجصصة من تل الرماد
عن: Schmandt-Besserat 2013

أما المجموعة الثالثة فقد وضعت ضمن حفرة بيضاوية مصنوعة من الطين، وبجوارها إناء حجري كبير، وتم ترتيبها في مجموعات صغيرة يفصل بينها كرات من الطين، وقد بلغ عددها عشر جماجم لم يتم تحديد جنس أي منها، وبجوارها مجموعة من الدمى البشرية

المصنوعة من الطين والمطلية بطبقة من الجص[24]، يصل طولها إلى 25سم، ورؤوس هذه الدمى عبارة عن نتوء منتفخ وربما صنعت هذه الدمى لتكون حاملة للجماجم.

بالإضافة لتل الرماد عثر في تل أسود في غوطة دمشق على قبرٍ يحتوي في قاعدته مجموعة من أربع جماجم مجصصة، كما عثر على حفرة تحتوي على خمس جماجم مجصصة (الشكل15) وجدت جميع الجماجم المقولبة كاملة مع الفك السفلي والأسنان[25].

وجاءت طريقة معالجة هذه الجماجم من قبل سكان الموقع بتشكيل الجص الأبيض مباشرة على العظم، ومن ثم تم تلوين كل الملامح المقولبة أو المضافة بالمغرة الحمراء باستثناء رموش العيون، وحدد القسم العلوي والأطراف الجانبية من القناع بأداة حادة وبخط وحيد عندما كان الجص لا يزال طرياً ورطباً.

[24] Ferembach,1969, Etude Anthropologique des Ossements Humains Neolithiques de Tell Ramad, AAAS, Vol 19, P.50.

[25]Stordeur D. and Khawam R. 2006 Les Cranes Surmodelés de Tell Aswad (PPNB, Syrie). Premier Regard sur l'Ensemble, Premières Réflexions. Syria 87: 5-32

الشكل رقم 15: المجموعة الثانية من الجماجم المجصصة المكتشفة في تل أسود
عن: Stordeur D. and Khawam R. 2007

وهناك خط أفقي في وسط العين يفترض التقاء الجفون. وخط من اللون الأسود (ربما مادة القار) وضع كإشارة على رموش العيون، والأنف طويل ونحيل وبارز بشكل واضح مع افتراض وجود الفتحات الأنفية، أما الجماجم المقولبة فكانت واقعية الشكل، والوجه مرهف و الملامح جميلة جداً.الجمجمة كانت في الوسط تقريباً ملاصقة للجمجمة أخرى ويشكل الوجهان نوعاً من الانسجام فيما بينهما[26]، وكل ذلك يدفعنا إلى الاعتقاد بأنهم وضعوهما معاً عن قصد ولهدف ما. تم التلوين في الوسط بالمغرة الصفراء الزاهية. إن المهارة والمعرفة كانت واضحة بصفة خاصة من خلال الأنف (الشكل 16) مع وجود قاعدة مجهزة بشكل جيد تظهر أن فتحتي الأنف كانتا مفصولتين بخط طولي. وإن واقعية المعالم وجماليتها كانتا تدلان على ذوق فني عند سكان تل أسود.

[26]Stordeur D. and Khawam R. 2007 L'AireFunéraire de Tell Aswad (PPNB). Syria 83: 39-62.

شكل 16: يبين الدقة في نحت الأنف على أحد جماجم تل أسود
عن:Stordeur D. and Khawam R. 2007

ويمكننا القول إنه على الرغم من أن جميع المواقع السابقة قد استخدمت الجص في إعادة تشكيل الرأس إلا أنهم نفذوا ذلك بطرق مختلفة، كقاعدة عامة تمت إزالة الفك السفلي وجميع الأسنان، ولكن هناك استثناءات. فقد حافظت جماجم تل الرماد وتل أسود وأريحا على الفك السفلي، على العكس من عين غزال وبيسان، وتم التعامل مع الجمجمة باستخدام كمية كبيرة من الجص في معظم الحالات حيث كان الهدف ملء تجاويف الأنف ومحجر العين، ولكن في أريحا كانت الجماجم مغطاة بشكلٍ كاملٍ بالجص. استخدم الصدف لإعادة تشكيل العين في أريحا، واستخدم القار لإغلاق العيون في تل أسود.

ب– الرأس في الفن:

اهتم الفنان خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"ب" بالرأس وذلك من خلال صنع أقنعة خاصة من مادة الجبس مشابهة نوعاً ما للجماجم المجصصة، ففي موقع عين غزال عثر على ثلاثة أقنعة مُصنعة من الجبس ضمن الترسبات في أرضية إحدى الغرف الكبيرة التي يرجح أنها كانت تستعمل لأغراض عامة، مما يرجح أن هذه الأقنعة قد عرضت للمشاهدة في حينها.

امتازت هذه الأقنعة بأنها اتخذت شكل الجمجمة وبحجمها الطبيعي تقريباً وإن اختلفت قياسات هذه الأقنعة، ويعود ذلك إلى أن طريقة صنع هذه الأقنعة كانت تتم بوساطة استعمال الجماجم البشرية مباشرة كقوالب، ثم تنزع بعد أن تجف تماماً، ومن خلال دراسة أحجام هذه الأقنعة وقياساتها وأشكالها تبين أنها تعود لرجل وامرأة وطفل. كانت العيون مغلقة الأجفان في جميع الأقنعة (الشكل 17)، وهناك معالجات تشريحية واضحة لبروز عظام الوجنتين والجمجمة والحاجبين، إلا أن افتقاد الجماجم الأصلية لعظم الفك السفلي، أثر بشكل واضح في هيئة الشكل الخارجي للأقنعة[27].

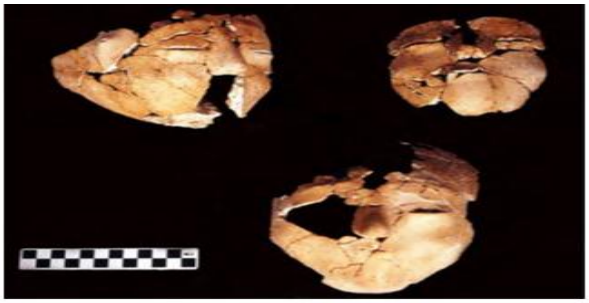

شكل رقم 17، يبين الأقنعة الثلاث التي تم اكتشافها في موقع عين غزال: Schmandt-Besserat 2013, 222

وتم لاحقاً اكتشاف قناع كامل في موقع وادي حمار في فلسطين أيضاً وجزء من قناع آخر يمثل الفم، أما الباقي فهو محطم . القناع كامل تقريباً طوله 26.5 سم وبسماكة 17.2 سم تتراوح بين13–16مم، وتم نحت القناع بسكين صوان، وتنعيم الوجه بدقة، وتم حفر 18 ثقباً حول حوافه، جاء تجويف العين مستديراً ومحاطاً بحواف حجرية مستديرة وسميكة متصلة بتشكيل عظام الجبهة والخدين، ونحت الأنف بشكل مستقيم . تم تشكيل ثمانية أسنان داخل

[27]Rollefson, Gary O., Simmons, Alan H., and Kafafi, Zeidan.1992 "Neolithic Cultures at 'AinGhazal, Jordan." Journal of Field Archaeology 19, no. 4PP: 443-470.

الفم بطريقة الشق والنحت (الشكل 18)، أربعة في كل فك، تظهر أعلى الشفاه بقع من القار[28]، لذلك على تلوين أحمر وأخضر وخطوط شعاعية تمتد من المركز باتجاه المحيط وكأنها تمثل لحية.

شكل رقم 18: يبين القناع الحجري المكتشف في وادي حمار في فلسطين
عن: Yakar R., Hershkowitz J. 1988

تشترك هذه الأقنعة بسمات بصرية مشتركة، من بينها تجاويف العين والفم المفتوح، مما يوحي بتعبير الذهول، وهي بذلك مشابهة للجماجم البشرية المجصصة. قد تكون الثقوب الموجودة على طول الحواف قد استخدمت في ربط الأقنعة بالوجه أو لتثبيتها على أعمدة أو تماثيل، أو ربما كانت تستخدم لوضع الشعر فيها مما يعطي الأقنعة مظهراً أكثر إنسانية.

[28]Yakar R., Hershkowitz J.1988 NahalHemar cave: the modeled skulls. ‘Atiqot 18: 59-63.

الاستنتاجات والخاتمة:

اهتم الإنسان بالرأس منذ العصر الحجري القديم الأوسط حيث فصل الجمجمة عن بقية الجسد واستمر هذا الطقس خلال الثقافة النطوفية، ومع الانتقال إلى العصر الحجري الحديث أصبح الاهتمام ليس فقط بفصل الجمجمة عن الرأس وإنما بإعادة تشكيلها، حيث ظهرت سمات متشابهة في التعامل مع الرأس بمواقع العصر الحجري الحديث في بلاد الشام من حيث استخدام الجص لإعادة تشكيل الوجه المتآكل، لا يوجد اختيار معين للجنس أو العمر لإجراء عملية التجصيص. بالإضافة للجماجم ظهرت محاولة لنحت الرأس وتحديداً منطقة الوجه أيضاً منذ العصر الحجري القديم الأوسط حتى العصر الحجري الحديث، هذا الاهتمام بإعادة تشكيل الجماجم أو تصنيع الأقنعة يعود ربما لما تحمله هذه الجماجم في معتقدات إنسان ما قبل التاريخ من خصائص علاجية وقوة سحرية حامية من الأمراض، وواقية من الشر، ومثل هذه الفرضية كانت موجودة لدى المجتمعات البدائية التي عاشت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومنهم سكان جزر الأندمان، الذين يقومون بإخراج الجمجمة وتزيينها بطلاء أحمر وطين أبيض، حيث يعتقدون أنها تقي من الأمراض، فمثلاً إذ مرض أحد الأهالي بصداع فإنه يضع الجمجمة على رأسه فيشعر بتحسن.

ولعل استخدام هذه الجماجم كان نوعاً من الوساطة بينهم وبين قوى الطبيعة، ففي العصر الحجري الحديث استقر السكان في قرى طوال السنة، معتمدين بشكل أساسي في غذائهم على الزراعة، فلابد أنهم مارسوا طقوساً دينية خاصة لزيادة المحصول، وهذا المعتقد مازال موجوداً لدى سكان في دولة جواتيمالا، حيث يتم الاحتفاظ بثلاث جماجم على مذبح الكنيسة ويعتقد السكان أنهم يمثلون أسلافهم الموقرين، وخلال وقت معين من السنة الزراعية يتم تسيير إحدى الجماجم في موكب عبر القرية ويحدث ذلك ليلاً بواسطة رجال القرية (كبار السن)، ويتم تقديم الجمجمة على طبق كبير وتتسلمها فتاة في سن الزواج، ويتم إعداد وليمة

تقليدية وتوضع الجمجمة على مائدة منفصلة مع أفضل الطعام، ومن الواضح أن هذه الشعيرة ما هي إلا إحدى ظواهر الخصوبة حيث تقوم بإجراء القداس امرأة قادرة على الإنجاب، ومن ثمَّ الربط بين خصوبة المرأة و الأرض.

يمكن القول إن الأقنعة الحجرية المنحوتة، والجماجم الطقسية للأسلاف التي وجدت في قرى العصر الحجري الحديث استخدمت في الاحتفالات الدينية والاجتماعية وفي طقوس الشفاء والسحر. من خلال إنشاء صور بشرية لأغراض دينية، والتي أصبحت السمة السائدة في العالم الرمزي للعصر الحجري الحديث، عبر تعبير سكان هذا المجتمع على قدرتهم المتزايدة في السيطرة على الطبيعة، ويمكننا القول إنهم تمكنوا من تصوير ما هو خارق للطبيعة ألا وهو تصوير ملامح أسلافهم.

المراجع:

1. Bienert H-D. 1991 Skull cult in the prehistoric Near East. Journal of Prehistoric Religion 5: 9-21
2. Bonogofsky M, 2003 Neolithic plastered skulls and railroading pistemologies. Bulletin of the American School of Oriental Research 331: 1-10.
3. Bocquentin, F 2007, A final Natufian Population: Health and Burials statuse at Aynan-Mallaha in Faerman,M., Horwitz, (eds)Faces from the past: Diachronic patterns in the Biology of Human Poulations form the Eastern Mediterranean. Papers in honour of patricia smith. BAR International series 1603. PP. 66-81
4. Boyd,B 2001, the Natufian Burials from El-Wad Mount Carmel, Beyond Issues of Social Differntion JIPS,Vol,31,P 185.
5. Contenson H. 2000 Ramad, Site Néolithique en Damascène (Syrie) aux VIIIe et VIIe Millénaires avant L'ère Chrétienne. Beyrouth: Institut Français d' Archéologie du proche Orient.
6. Contenson, 1970, Septieme Campagne de Fouilles a Tell Rama den 1970, rapport preliminiaire AAAS, vol 20, P77.
7. Dietrich, Oliver, 2014, Masks and masquerade in the Early Neolithic: A view from Upper Mesopotamia.
8. Goren, Yuval, Goring-Morris, Nigel A., and Segal, Irena.2001 "The Technology of Skull Modelling in the Pre-Pottery Neolithic B (PPNB): Regional Variability, the Relation of Technology and Iconography and their Archaeological Implications." Journal of Archaeological Science 28: 671–690. doi:10.1006/jasc.1999.0573.
9. Gary O. Rollefson and Alan H. Simmons,1987, "Life and Death of 'Ain Ghazal," Archaeology: 38.
10. Grosman, L., D. Shaham, F. 2017: A human face carved on a pebble from the Late Natufian site of NahalEinGev II, Antiquity 91, 358.e2, 1–5.

11. Ferenbach,D, 1966, Note preliminaire sur les Squelettes Humains de Fallah et de Mallaha actes du vie congress, International des Sciences Anthropoplogiques et Ethnotogiques, p.587.
12. Ferembach,1969, Etude Anthropologique des Ossements Humains Neolithiques de Tell Ramad, AAAS, Vol 19, P.50.
13. Kenyon,K,M, 1975, Observations on the Article five Plastered Skulls from pre-pottery Neolithic A, Jericho, Plaleorient, Vol2/1, P211
14. Kathleen M. Kenyon, "Excavations at Jericho," The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland 84, no. ½ (Jan-Dec. 1954): 103.
15. Lengyel, 2013, The Natufian at Raqefet Cave, Natufian foragers in the Levant : terminal Pleistocene social changes in Western Asia / edited by Ofer Bar-Yosef& François Valla,P: 498.
16. Marquet nadlorblanchet, 2015, A Neanderthalface ? The proto-figurive La Roche-Cotard, Langeais(Indreet-Loire, France).
17. Rollefson, Gary O., Simmons, Alan H., and Kafafi, Zeidan. 1992 "Neolithic Cultures at 'Ain Ghazal, Jordan." Journal of Field Archaeology 19, no. 4 PP: 443-470.
18. Rollefson,G,O, 1986 The Neolithic Village of 'Ain Ghazal, Jordan: Preliminary Report of the 1984 Season, BASORSupplement 24: 145-164.
19. Simmons,A, 1990, Plastered Human skull from Neolithic Ain Ghazal, JFA, Vol 17/1, P.107.
20. Strouhal, "Five Plastered Skulls," 231; Fletcher, Pearson, and Ambers, "The Manipulation of Social and Physical Identity," 310.

21. STORDEUR D. 2000, New discoveries in architecture and symbolism at Jerf el Ahmar (1997-1999 Syria) (traduction E. Willcox), Neo lithics 1/00, p. 1-4.
22. Stordeur, D., and F. Abbès. 2002. "Du PPNA au PPNB : mise en lumière d'une phase de transition à Jerf el Ahmar (Syrie)." Bulletin de la SociétéPréhistoriqueFrançaise 99 (3): 563- 595.
23. Stordeur, D. 2015. Le village de Jerf el Ahmar (Syrie, 9500-8700 av. J.C.). L'architecture, miroir d'une société néolithique complexe. Paris : CNRS Editions.
24. Tillier,M, 2003, New Human Remains from Kebara Cave the Place of the kebara hominids in the Levantine Mousterian Fossil Record, Paleorient, Vol 29/2, P.P35-37.